الدُّرَّةُ الفَاخِرَة

في التَّعليق على منظومة السَّير إلى الله والدَّار الآخرة

نظمها وعلَّق عليها
العلَّامة الشَّيخ عبد الرحمن بن ناصر السَّعديّ
المتوفى سنة ١٣٧٦هـ رحمه الله تعالى

اعتنى بها
عليّ بن حسن بن عليّ بن عبد الحميد الحلبيّ الأثريّ

دار ابن عفان

الدرة الفاخرة

في

التعليق على منظومة

السير إلى الله والدار الآخرة

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

رقم الإيداع: ١٠٤٢٠

دار ابن عفان

للنشر والتوزيع

الجيزة - ت: ٣٢٥٥٨٢٠ - ص.ب: ٨ سبين السرايات

القاهرة - ١١ ش درب الأتراك - الأزهر - خلف الجامع الأزهر

هاتف محمول: ٠١٠١٥٨٣٦٢٦٠

جمهورية مصر العربية

E.mail : ebnaffan@hotmail.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الدُّرَّةُ الفَاخِرَة

في

التعليق على منظومة

السَّيْرُ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرَة

نظمها وعلّق عليها

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

المتوفى سنة (١٣٧٦هـ) رحمه الله تعالى

اعتنى بها

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الحلبي الأثري

دار ابن عفان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ ، ونعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنفُسِنا وسيِّئات أعمالِنا ، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له ، ومَن يُضلل فلا هاديَ له .

وأشهدُ أنْ لا إله إلَّا الله وحدَهُ لا شريكَ له .

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ .

أمَّا بَعْدُ :

فهذه « منظومةٌ » أخلاقيةٌ تربويّةٌ مُختَصَرَةٌ « في الحَثِّ على عبادةِ الله ، ومحبّتِهِ ، والإنابةِ إليه ، وفي الحَثِّ على سلوكِ الطريقِ المُوصِلِ إلى دارِ السلام »[1] .

وعنوانُ هذه « المنظومة » يَدُلُّ على محتواها ومضمونها : « السَّيْرُ إلى الله والدَّار الآخِرة » .

وناظمُها هو العلَّامةُ الفقيهُ الأُصوليُّ المُفسِّر الشيخُ عبدالرحمن بن ناصر السَّعْدي ؛ رحمه الله تعالى .

---

(١) « الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهودُهُ في توضيح العقيدة » (ص ٦٣) تأليف الأخ الفاضل الدكتور عبدالرزاق العَبَّاد ؛ وفَّقَهُ الله للسَّداد .

ولقد فَرَغَ الناظمُ - رحمه اللهُ - من منظومتِهِ هذه بتاريخ ٣ شعبان سنة ١٣٣٣ هـ - أي : قبل أكثر من ثمانين عامًا - ؛ وقد كان عُمُرُهُ - حينذاك - ستَّةً وعشرين عامًا [١] .

ولمَّا كانَ للناظمِ نفسِه - رحمه الله تعالى - تعليقٌ مُوْجَزٌ على منظومتهِ - طُبع معها - رأيتُ أن أُسمِّيَ هذا التعليقَ - مع النَّظم - اسماً ينطبقُ عليه ، ويَهْدي إليه ؛ هو « الدُّرَّةُ الفاخرةُ في التعليق على منظومة السَّيْرِ إلى الله والدار الآخرة » .

ولقد كانَ عَمَلي في إعادةِ نَشْرِ هذه « الدُّرَّة الفاخِرَة » مُتَوَجِّهًا إلى : ضَبْط نصِّها ، وتخريجِ أحاديثها ، والتعليقِ عليها ، وتقويم ما اختلَّ - بسبب الطبعِ [٢] - من نظمِها .

فاللهَ أسألُ التوفيقَ والسَّداد ، والهدى والرشاد ، وأن ينفعني وجميعَ العباد .

وكتب

أبو الحارث الحلبيُّ الأثريُّ

الخميس في ١٤ رمضان ١٤١٧ هـ

---

(١) المرجع السابق .

(٢) ثمّ رأيتُها في أواخر رمضان (١٤١٧هـ) - في مكّة - مطبوعةً طبعةً جديدةً (!) دون أيِّ جُهد علميٍّ ، بل بتكرار الأخطاء والأغلاط !

مُوجز ترجمةِ الناظم

○ أسمه : عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن حَمَد آل سعدي .

○ مولده : وُلِدَ في عُنَيزة من أعمالِ القَصيم ، بتاريخ ١٢ محرّم سنةَ أَلفٍ وثلاثِ مئةٍ وسبعٍ للهجرةِ .

○ نشأتُهُ : نشأ الشيخُ عبدالرحمن - رحمه اللهُ - في كَنَفِ والدِهِ نشأةً تربويّةً صالحة ، لكنَّ الله - سبحانَه - توفّاه قبل أن يبلغَ ولدُه سنّ العاشرة .

فعاشَ - بَعْدُ - برعايةِ أخيه الأكبر حَمَد ؛ فوجّهه الوجهةَ العلميّةَ التي وفَّرَتْ له التحصيلَ القويَّ ، والإدارِكَ الجيِّدَ ، والدراسةَ الدائبةَ .

○ شيوخه : تلقّى العلمَ على عددٍ من كبارِ المشايخِ وأهلِ العلمِ المعروفِين ، منهم :

١ - الشيخ إبراهيم بن حَمَد بن محمد بن جاسر ؛ أَخذَ

عنه التفسيرَ ، والحديثَ ، وأصولَها .

٢ - الشيخ محمد عن عبدالكريم بن إبراهيم بن صالح الشِّبْل ؛ أَخذَ عنه الفقهَ ، والأُصولَ ، وعلومَ اللغةِ .

٣ - الشيخ صالح بن عثمان بن حَمَد بن إبراهيم القاضي ؛ أَخذَ عنه التوحيدَ ، وغيرَه .

٤ - الشيخ إبراهيم بن صالح بن إبراهيم القحطاني ، أَخذَ عنه التوحيدَ .

٥ - الشيخ محمد الأمين محمود الشنقيطي ؛ أَخذ عنه التفسيرَ ، والحديثَ ، وعلومَ العربيّة .

○ أعمالُه ووظائفه : تولّى في بَلْدَتهِ الوعظَ ، والإمامةَ ، والإفتاءَ ؛ وغيرَ ذلك من القضايا التي تهمُّ إخوانَه وأبناءَهُ ، وتنفعُهم .

أَسّسَ - قبلَ أكثر من نصف قَرْنٍ - مكتبةً علميّةً ضَخْمةً ، تضمُّ نفائسَ الكتبِ في سائرِ فنونِ العلمِ .

عُيِّنَ سنةَ (١٣٧٣هـ) مُشرفًا على المعهدِ العلميِّ في عُنَيْزةَ .

○ مؤلَّفاتُه : كثيرةٌ ، من أهمِّها :

١ - « بهجة قلوبِ الأبرار » .

٢ - « توضيح الكافية الشافية » .

٣ - « التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطيّة من المباحثِ المنيفة » .

٤ - « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان » .

٥ - « منهج السالكين » .

٦ - « الفتاوى السعديّة » .

... وغيرها .

○ وفاتُهُ : توفِّي - إلى رحمةِ اللهِ تعالى - قبلَ طلوعِ فجرِ يومِ الخميسِ الموافق ٢٣ جمادى الآخر سنة ١٣٧٦ هـ ، قبلَ بُلُوغِهِ السبعين .

○ مصادر ترجمته ، في :

أ - « روضة الناظرين » (١ / ٢١٩) للشيخ القاضي .

ب - « علماء نجد » (٢ / ٤٢٢) للبسّام .

ج - « مشاهير علماء نجد » (٣٩٢) للقاضي .

د - « الأعلام » (٣ / ٣٤٠) للزركلي .

هـ - « معجم المؤلفين » (٣ / ٣٦٩) لكحّالة .

ولقد كُتِبت عنه - رحمه الله - دراساتٌ مفصّلةٌ ؛ حولَ دعوتِهِ ، وعلمِهِ ، وجهودِهِ ، وأَثرِهِ ، أَبرزها وأَجودها دراسة الأَخ الدكتور عبدالرزّاق العبّاد ، وهي جدّ نافعة ، فجزاهُ اللهُ خيرًا .

□□□□□

الدُّرَّةُ الفاخرة

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ ، وآله وصحبه أجمعين :

هذا تعليقٌ لطيفٌ على « منظومتي » في السير إلى الله والدار الآخرة ؛ يَحُلُّ معانيَها ، ويوضِّحُ مَبَانيَها ؛ فإنّها قد حصَّلت على كبيرٍ من منازل السائرين إلى الله ، التي تُوصِلُ صاحِبَها إلى جنَّات النعيم في جوار الرَّبِّ الكريم ، وتمنعُهُ من عذاب الجحيم والحجاب الأليم .

واللهُ المسؤولُ - بفضله ومنّه - أَنْ يجعلَه خالصًا لوجهه ، مقرِّبًا عندَهُ .

العبادة

واعلمْ أَنَّ المقصودَ من العبادةِ : عبادةُ الله ، ومعرفتُهُ ، ومحبّتُهُ ، والإنابةُ إليه على الدَّوام ، وسلوكُ الطُّرُق التي تُوصِلُ إلى دار السلام .

وأكثرُ النَّاسِ غَلَبَ عليهم الحِسُّ ، ومَلَكَتْهم الشهواتُ والعاداتُ ، فلم يرفعوا بهذا الأمرِ رأسًا ، ولا جعلوه لبنائهم أساسًا ، بل أَعرضوا عنه اشتغالاً بشهواتهم ، وتركوهُ عُكوفًا على مُراداتِهم ، ولم ينتهوا لاستدراك ما فاتهم في أَوقاتهم ؛ فهم في جهلهم وظُلْمِهم حائرونَ ، وعلى حظوظ أَنفسهم الشاغلة عن الله مُكِبُّونَ ، وعن ذكر ربِّهم غافلونَ ، ولمصالح دينهم مُضَيِّعون ، وفي سُكْر عِشق المألوفات هائمونَ ؛ ﴿ نَسُوا اللهَ فأَنساهُمْ أَنفسَهم أُولئكَ هُمُ الخاسرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحشر : ١٩ .

قالَ المصنِّفُ - رحمه اللهُ - في « تيسير الكريم الرحمن » (٧ / ٣٤٣) : « والحِرمان كلَّ الحرمانِ أَنْ يَغفل العبدُ عن هذا الأَمرِ ، ويُشابِهَ قومًا نَسُوا =

ولم يتنبَّه من هذه الرَّقدة العظيمة ، والمصيبة الجسيمة إلاَّ القليلُ من العُقلاء ، والنادرُ من النُّبلاء ؛ فعلموا أَنَّ الخسارةَ كلَّ الخسارة الاشتغالُ بما لا يُجدي على صاحبه إلاَّ الوَبال والحرمان ، ولا يُعوِّضُه ممَّا يُؤمِّلُ إلاَّ الخسران ، فآثَروا الكاملَ على الناقص ، وباعوا الفانيَ بالباقي ، وتحمَّلوا تعبَ التكليف والعبادة ، حتَّى صارتْ لهم لَذَّةً وعادة ، ثمَّ صاروا بعدَ ذلك سادة ، فاسمعْ صفاتِهم ، واستعنْ بالله على الاتِّصاف بها :

١- سَعِد الذين تجنَّبوا سُبُل الرَّدَى وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوانِ

□ هذا هو أَصلُ طريقهم ، وقاعدةُ سير فريقهم :

إنَّهم تجنَّبوا طُرُقَ الخُسران ، وتيمَّموا طُرُقَ الرّضوان .

تجنَّبوا طرقَ الشيطان ، وقصدوا عبادةَ الرحمن .

تجنّبوا طُرقَ الجحيم ، وتيمّموا سبلَ النعيم .

تركوا السيئات ، وعملوا على الحسنات .

= الله ، وغَفَلُوا عن ذكرِهِ والقيامِ بحقِّهِ ، وأَقبَلُوا على حظوظِ أنفسِهم وشَهَواتِها ، فلم ينجحوا ، ولم يحصلوا على طائلٍ ؛ بل أنساهم اللهُ مصالحَ أنفسِهم ، وأَغفَلَهم عن منافعِها وفوائدِها ، فصارَ أمرُهم فُرُطًا ، فرجعوا بخسارةِ الدارين ، وغُبِنُوا غُبنًا لا يُمكنُ تداركُهُ ، ولايُجْبَرُ كَسْرُهُ ؛ لأنهم هم الفاسقونَ ، الذين خرجوا عن طاعةِ ربِّهم ، وأَوضعوا في معاصيه » .

نزَّهوا قلوبَهم وألسنتَهم وجوارَحهم عن المحرَّمات والمكروهات ، وشغَلوها بفعل الواجبات والمُستحبَّات .

تحلَّوا بالأخلاق الجميلة ، وتخلَّوا من الأوصاف الرّذيلة .

٢- فَهُمُ الّذينَ أخلصوا في مَشْيِهم مُتَشَرِّعين بِشِرْعَةِ الإيمانِ

□ هاتان القاعدتان - وهما : الإخلاصُ والمُتابعةُ - شرطٌ لكلِّ عبادةٍ ظاهرةٍ وباطنة [1] ، فكلُّ عملٍ لا يُرادُ به وجهُ الله فهو باطلٌ ، وكلُّ عملٍ لا يكونُ على سُنَّة رسول الله فهو مردودٌ ؛ فإذا اجتمعَ للعمل الإخلاصُ للمعبود - وهو أنْ يُرادَ بالعمل وجهُ الله وحدَه - ، والمتابعةُ للرسول - وهو أنْ يكونَ العملُ قد أُمِرَ به - فهذا هو العملُ المقبولُ .

٣- وَهُمُ الّذين بَنَوْا منازلَ سَيرِهم بينَ الرَّجا والخوفِ للديّانِ

□ أي : ساروا في جميع أمورهم مُسْتَصْحِبينَ ومُلازمين للخوف والرجاء ، وذلكَ أنَّ لهم نظرًا ؛ - أي : نظرٌ إلى أنفسهم وتقصيرهم في حقوق الله : يُحدِثُ لهم الخوفَ ، وَنظرٌ إلى مِنَن الله عليهم ، وإحسانه إليهم : يُحدِثُ لهم الرجاءَ - .

---

(١) وفي كتاب « العُبوديّة » لشيخ الإسلام ابن تيميّة بيانٌ تفصيليٌّ لِهاتَين القاعدتَين .

وأيضًا ؛ ينظرونَ إلى صفات العظمةِ والجلالِ ، والحكمةِ والعدلِ ؛ فيخافونَ على أنفسِهم من ترتُّبِ آثارِها ، وينظرونَ إلى صفاتِ الرحمة والجود والكَرَم والإحسانِ ؛ فيرجونَ ما تقتضيه :

فإنْ فعلوا حسنةً ؛ جمعوا بينَ الخوف والرجاء ، فيرجونَ قَبولَها ، ويخافونَ ردَّها .

وإنْ عملوا سيئةً ؛ خافوا من عقابها ، ورَجَوْا مغفرتَها بِفَضْلِ الله ، فهم بينَ الخوف والرجاء يتردَّدونَ ، وإليهما دائماً يفزَعونَ ، ومنهما في أمر سيرهم متردِّدونَ ، فأُولئكَ الذينَ أَحرزوا قَصَبَ السَّبْق ، وأُولئكَ هم المفلحونَ .

٤- وَهُمُ الذينَ مَلَا الإلهُ قلوبَهم بـــودادِهِ ومحبَّــةِ الرحمـــانِ

□ هذه المنزلةُ - وهي منزلةُ المحبّة [1] - هي أَصلُ المنازل كلّها ، ومنها تنشأُ جميعُ الأعمال الصالحة ، والأعمال النافعة ، والمنازل العالية .

---

(١) قالَ العلّامةُ ابنُ القيِّم في « مدارج السالكين » (٣ / ٨) :

« وهي المنزلةُ التي فيها تنافَسَ المُتنافِسونَ ، وإليها شَخَصَ العاملون ، وإلى عَلَمِها شَمَّرَ السابقون ، وعليها تَفانَى المُحِبُّون ، وبِرَوْحِ نَسيمِها تروَّحَ العابدونَ ، فهي قوتُ القلوبِ ، وغِذاءُ الأرواحِ ، وقُرَّةُ العيون » .

ومعنى المحبّة : تعلُّقُ القلب بالمحبوب ، ولزومُ الحبّ للقلب ، فلا تنفكّ عنه ، [وهي] تقتضي من صاحبها الانكفافَ عن ما يكرهُ الحبيبُ ، والمبادرة إلى ما يُرضيه بقلبٍ منشرحٍ ، وصدرٍ رحيبٍ ؛ فإنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بالله ، وإنْ سَكَتَ سكتَ لله ، وإنْ تحرَّكَ فللّه ، وإنْ سَكَنَ فلهُ ، وَيَحْدُثُ عن الحبّ الشوقُ إلى الله ، والقلقُ ، فلا يكادُ صاحبُهُ يستقرُّ [١] .

إنْ قيلَ : فهل للمحبّةِ - التي هي أعلى المراتب - من وسيلةٍ وسببٍ ؟

قيلَ : لم يجعل اللهُ مَطلبًا إلاّ جعلَ لحصوله سببًا ؛ فمِن أكبر أسبابها الانكِفَافُ عن كلّ قاطعٍ [٢] بالقول والفعل والأفكار الرديّة ، والإكثارُ من ذكر الله بحضور قلبٍ ، وتدبُّر كلامِه الكريم ، مُطالِعةً نِعَمَهُ العظيمةَ على العبد ، وبالوقوف بينَ يديه بحضور قلبٍ ، وأدَبٍ في الوقوف بينَ يديه ، ومجالسة المُحبّين ، ومجانبة كلّ قاطع [٢] ؛ فَمَن فَعَلَ ذلكَ نالَ محبّةَ الله - إنْ شاءَ اللهُ - ، واللهُ المُستعانُ .

---

(١) وذلك بسببِ ما يقيمُ عليه نفسَه من عملٍ ، ومُجاهدةٍ ، ودعوةٍ . . .

(٢) أي : مِن القواطعِ عنها ، المؤخّرة لها .

ولهذا قلتُ :

٥- وهم الذينَ أكثروا مِن ذكرِهِ   في السرّ والإعلان والأحيانِ

□ منزلةٌ شريفةٌ ، حاجةُ كلّ إنسانٍ إليها - بل ضرورتُهُ إليها - فوقَ كلّ حاجةٍ ، فذِكرُ الله (١) هو عمارةُ الأوقات ، وبه تزولُ الهمومُ والغمومُ والكُدوراتُ ، وبه تحصلُ الأفراحُ والمسرّاتُ ، وهو عِمارةُ القلوب المُقفِرات ، كما أنّهُ غِراسُ الجنّات ، وهو مُوصِلٌ لأعلى المقامات ، وفيه من الفوائد ما لا يُحصى ، ومن الفضائل ما لا يُعدّ ولا ينقضي ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا اذْكُروا اللهَ ذِكْرًا كثيرًا وسبِّحوه بُكرةً وأَصِيلاً ﴾ (٢) .

---

(١) لابنِ القيّمِ في « الوابل الصيّب » (٨٤ - ١٦٧) كلامٌ طويلٌ جدًّا في بيانِ فوائدِ الذِّكرِ ، أوصلَها إلى أكثرَ من سبعين فائدةً .

وفي بعضٍ منها (ص ٨٥) نقلٌ عن شيخِ الإسلامِ ابن تيميةَ قولَه : « الذكرُ للقلبِ مثلُ الماءِ للسمكِ ، فكيفَ يكونُ حالُ السمكِ إذا فارقَ الماءَ ؟! » .

وفي (ص ٨٥ - ٨٦) قالَ : « وحضرتُ شيخَ الإسلام ابن تيميّة مرّةً صلّى الفجرَ ، ثمّ جلسَ يذكرُ اللهَ - تعالى - إلى قريبٍ من انتصافِ النهارِ ، ثمّ التفتَ إليّ ، وقالَ : هذه غدوتي ، ولو لم أتغدّ هذا الغداءَ سَقَطتْ قوّتي » .

(٢) سورة الأحزاب : ٤١ - ٤٢ .

وقالَ النبيُّ ﷺ لرجلٍ - قالَ - : إنَّ شرائعَ الإسلام قد كَثُرتْ عليَّ ! فأوصِني ؟ قالَ : « لا يزالُ لسانُكَ رَطبًا منْ ذكْر الله » [١] .

وقالَ : « سَبَقَ المُفَرِّدونَ » ، قالوا : ومَا المُفَرِّدونَ ؟ قال : « الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِراتُ » [٢] .

ولي من أبيات [٣] :

وكنْ ذاكرًا لله في كلِّ حالةٍ   فليسَ لِذِكْرِ الله وقتٌ مُقيَّدُ
فَذِكرُ إله العرش سرًّا ومُعلَنًا   يُزيلُ الشَّقا والهمَّ عنك ويَطرُدُ
ويجلبُ للخيرات دينًا وآجلاً   وإنْ يأتِكَ الوسواسُ يومًا يُشرِّدُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٥) ، وأحمد (٤ / ١٩٠) ، وابنُ حبان (٢٣١٧) ، وابن أبي شيبة (١٠ / ٣٠١) عن عبدالله بن بُسْرٍ بسندٍ حَسَنٍ .

(٢) رواه مسلمٌ (٢٦٧٦) عن أبي هريرةَ .

و (المُفَرِّدونَ) هم : المُنقطِعونَ عن النَّاسِ بذكرِ اللهِ .

كما قالَ ابن الأعرابيّ ؛ فيما نقلَهُ عنه الحُميديّ في « تفسير غريب ما في الصحيحين » (٣٧٣) .

(٣) وقد ضمَّنَ المُصنِّفُ أبياتَه - هذه - معانيَ عدّة أحاديث نبويّة صحيحة ، أكتفي بهذه الإشارةِ عن تخريجها فيه .

فقد أخبر المُختارُ يومًا لصحبِهِ بأنَّ كثيرَ الذكر في السبق مُفرِدُ[1]
ووصَّى معاذًا يستعينُ إلهَهُ على ذكرِهِ والشكرِ بالحسنِ يَعْبُدُ
وأوصى لشخصٍ قد أتى لنصيحةٍ وقد كانَ في حملِ الشرائعِ يُجهَدُ
بأنْ لم يَزَلْ رَطبًا لسانُكَ هذهِ تُعينُ على كلِّ الأمورِ وتُسعِدُ
وأخبرَ أنَّ الذكرَ غرسٌ لأهلِهِ بجنَّاتِ عدنٍ والمساكنُ تُمْهَدُ
وأخبرَ أنَّ اللهَ يذكرُ عبدَهُ ومعْهُ على كلِّ الأمورِ يُسَدِّدُ
وأخبرَ أنَّ الذِّكرَ يبقى بجنبِهِ وينقطعُ التكليفُ حينَ يُخَلَّدُ
ولو لم يكنْ في ذكرِهِ غيرُ أنَّهُ طريقٌ إلى حبِّ الإلهِ ومُرشِدُ
وينهى الفتى عن غِيبةٍ ونميمةٍ وعن كلِّ قولٍ للديانةِ مفسدُ
لكانَ لنا حظٌّ عظيمٌ ورغبةٌ بكثرةِ ذكرِ اللهِ نِعْمَ المُوحَّدُ
ولكنَّنا من جهلِنا قلَّ ذِكرُنا كما قلَّ منَّا للإلهِ التَّعَبُّدُ

وذِكرُ الله نورٌ للذاكر ؛ في قلبه ، وفي قوله ، وفي قبره ، ويومَ حشره .

واللهُ المُستعانُ .

---

(١) قالَ النووي في « الأذكار » (١ / ٧٠) : « رُوي « المفرِدون » بتشديدِ الراءِ وتخفيفها ؛ والمشهورُ الذي قالَهُ الجمهورُ : التشديدُ » .

٦- يتقرَّبونَ إلى المَليك بفعلِهم طاعاتِهِ والتركِ للعصيانِ

□ هذه الأَعمالُ التي تُقرّبُ إلى الله ، وتُوصلُ إليه ، وهو فعلُ طاعته ، لا سيّما الفرائضَ ، وتركَ معاصيه ، كما في الحديث القُدُسي : « ... وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أَحبَّ إليّ ممَّا افترضتُه عليه ، ولا يزالُ عبدي يتقرّبُ بالنوافل حتَّى أحبَّهُ » (١) .

فلهذا قلتُ :

٧- فِعلُ الفرائض والنوافل دَأْبُهم مع رؤية التقصير والنقصانِ

□ هذا هو الكمالُ : وهو أَنْ يجتهدَ في أَداء الفرائض ، والإكثار من النوافل ، ويرى نفسَه مقصّرًا مُفَرّطًا ، فاجتهادُهُ في الأَعمال ينفي عنه الكسلَ ، ورؤيةُ تقصيره ينفي عنه العُجْبَ الذي يُبطلُ الأَعمالَ ويُفسدُها .

٨- صَبَرُوا النفوسَ على المكاره كلّها شوقًا إلى ما فيه من إحسانِ

□ الصبرُ (٢) : هو حبسُ النفس على ما يكرهُ الإنسانُ إذا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هُريرة .

وانظر تعليقي على « مِفتاح دار السعادة » (١ / ٢٦٢) للإمامِ ابن قيّم الجوزيّة .

(٢) قالَ الإمامُ ابنُ القيّم في « المدارج » (٢ / ١٥١) : « هو واجبٌ بإجماعِ الأُمّةِ ، وهو نصفُ الإيمان ؛ فإنَّ الإيمانَ نِصفان : نِصْفٌ صبرٌ ، =

كانَ فيه رِضى الرحمن .

والصبرُ ثلاثةُ أقسام : صبرٌ على طاعة الله حتَّى يُؤدِّيها ، وصبرٌ عن معاصي الله حتَّى يتركَها ، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسفَّهُها ، فإذا كَسِلتْ نفسُهُ عن طاعة الله حثَّها عليها ، وألزَمَها ، ورغَّبَها إيَّاها بثوابها ، وإذا اشتدَّت دواعي نفسه إلى معصية الله كفَّها عنها ، وحذَّرها وَبالَها ، وعاقبةَ فعالها ، فالصبرُ محتاجٌ إليه في كلِّ الأمور .

٩- نَزَلوا بمنزلة الرِّضى فَهُمْ بها قد أصبحوا في جَنَّةٍ وأمانِ

□ منزلةُ الرِّضى أعلى من منزلة الصبر (١) ؛ فإنَّ الصبرَ حبسُ النَّفس وكفُّها على ما تكرهُ ، مع وجود منازعةٍ فيها .

= ونِصْفٌ شكر » .

وقالَ في « عِدَّة الصابرين » (ص ١٧) : « وحقيقةُ الصبرِ أنَّهُ خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاقِ النَّفسِ ، يُمْتَنَعُ به من فعلٍ ما لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ ، وهو قوَّةٌ من قوى النَّفسِ ، التي بها صلاحُ شأنِها ، وقِوامُ أمرِها » .

وانظر « طريق الهجرتين » (٣٣٩ - ٣٥٨) له - رحمه الله - .

(١) نقل ابنُ القيِّم في « المدارج » (٢ / ١٧٠) عن شيخِهِ شيخِ الإسلامِ ابن تيميّة قولَه : « لم يجيء الأمرُ بالرِّضا كما جاءَ الأمرُ بالصبرِ ، وإنَّما جاءَ الثناءُ على أصحابِهِ ، ومدحُهم » .

وبالرضى تضمحلُ تلك المنازعةُ ، ويرضى عن الله رضى مطمئنٌ منشرح الصدر ، بل ربَّما تلذَّذَ بالبلاء كتلذُّذ غيره بالرخاء [(١)] .

وإذا نزلَ العبدُ بهذه المنزلة طابتْ حياتُهُ ، وقرَّتْ عينُهُ .

ولهذا سُمِّيَ الرّضا « جنَّةَ الدنيا ومُستراحَ العابدينَ [(٢)] » ، ومَنْ رَضيَ عن الله رضيَ اللهُ عنه ، ومَنْ رضيَ عن الله باليسير من الرّزق ، رضيَ اللهُ منهُ باليسير من العمل .

فحقيقةُ الرّضى تَلَقِّي أحكامِ الله الأمريّة الدينيّة ، وأَحكامِهِ الكونيّة القدَريّة بانشراح صدرٍ ، وسرور نفسٍ ، لا على وجه التكرُّه والتلمُّظ .

---

(١) روى ابنُ ماجه (٤٠٢٤) ، والحاكمُ (٤ / ٣٠٧) ، وابنُ سَعْد (٢ / ٢٠٨) عن أبي سعيد الخُدري - ضمن قصّةٍ - أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثمّ الصالحونُ ؛ إنْ كانَ أحدُهم لَيُبتَلى بالفقرِ ، حتى ما يجدُ أحدُهم إلّا العباءةَ التي يحويها ، وإنْ كانَ أحدُهم ليفرحُ بالبلاءِ ، كما يفرحُ أحدُكم بالرخاءِ » .

وصحّحه البوصيري في « مصباح الزجاجة » (٣ / ٥٤٠ - بتحقيقي) .

(٢) قالَ ابنُ القيِّم في « المدارج » (٢ / ١٧٢) - بعدَ كلامٍ - : « ولذلك كانَ الرّضى بابَ اللهِ الأعظمَ ، وجَنّةَ الدنيا ، ومُستراحَ العارفين ، وحياة المحبّين ، ونعيم العابدين ، وقُرّة عيونِ المُشتاقين » .

١٠- شكروا الَّذي أَوْلى الخلائقَ فضلَهُ   بالقلب والأقـوال والأركـانِ

□ الشكرُ [1] يكونُ بالقلب ، وهو : الاعترافُ بنعم الله ، والإقرارُ بها ، وعدمُ رؤية نفسه لها أهلاً ، بل هي محضُ فضل ربّه .

ويكونُ باللسان ؛ وهو الثناءُ على الله بها ، والتحدُّثُ بها .

ويكونُ بالجوارح ؛ وهو كفُّها عن معاصي الله ، والاستعانةُ بنعمه على طاعته ، فإن أعطاهُ شيئًا من الدنيا شَكَرَهُ عليه ، وإنْ زوَّى عنه شيئًا منها شكرَهُ أيضًا ؛ إذْ ربَّما كانت نِعمتُهُ عليه صارفةً منه شرًّا أعظمَ منها ، وإنْ وفَّقَه لطاعةٍ من الطاعات رأى المِنَّةَ لله في توفيقه لها وشَكَرَهُ عليها .

واللهُ المُستعانُ .

---

(١) قالَ ابنُ القيّم في « المدارج » (٢ / ٢٣٢) : « ومنزلةُ الشكرِ من أعلى المنازلِ ، وهي فوقَ منزلةِ (الرضى) وزيادة ، فالرضى مندرجٌ في الشكرِ ؛ إذ يستحيلُ وجودُ الشكرِ بدونِهِ . . وقد أمرَ اللهُ به ، ونهى عن ضدِّهِ ، وأثنى على أهلِهِ ، ووصفَ به خواصَّ خَلْقِهِ ، وجعلَهُ غايةَ خَلْقِهِ وأمرِهِ ، ووعد أهلَه بأحسنِ جزائِهِ » .

١١- صَحِبُوا التوكُّلَ في جميع أُمورهم   مع بذل جَهدٍ في رضى الرحمانِ

يَكْمُلُ العبدُ في هذين الأَمْرَيْنِ ؛ وهما : التوكُّل على الله ، والاجتهادُ في طاعة الله ، ويتخلَّفُ عن العبد الكمالُ بِفَقْدِ واحدٍ منهما .

فحقيقةُ التوكُّل تجمعُ أَمرين : الاعتمادَ على الله ، والثقةَ بالله ، فيعتمدُ على ربّه بقلبه في جلب ما ينفعُهُ في أَمر دينه ودنياه ، فَيَبْرَأُ من نفسه وحَولِها وقُوَّتِها ، ويثقُ بالله في حصول ما ينفعُهُ ، ودَفْع ما يضرُّهُ ، ويجتهدُ في الأَسباب التي بها يتوصَّلُ إلى المطلوب .

وتفصيلُ ذلك : أَنَّهُ إذا عزمَ على فعل عبادةٍ بَذَلَ جهدَهُ في تكميلها وتحسينها ، ولا يُبْقي من مجهوده مقدورًا ، وتبرَّأَ من النَّظر إلى نفسه وقوَّتها ، بل لجأَ إلى ربّه ، واعتمدَ عليه في تكميلها ، وأَحسنَ الظنَّ ، ووثقَ في حصول ما توكَّلَ به عليه .

وإذا عزمَ على ترك معصيةٍ - قد دعتْهُ نفسُهُ إليها - بَذَلَ جهده في الأَسباب الموجبة لتركها - من التفكُّر بها ، وصَرْف الجوارح عنها - ، ثمّ اعتمدَ إلى الله ، ولجأَ إليه في عصمته منها ، وأَحسنَ الظنَّ به في عصمته له ، فإنَّهُ إذا فعلَ ذلكَ في

جميع ما يأتي ويَذَرُ ، رُجِيَ له الفلاحُ - إنْ شاءَ اللهُ تعالى - .

وأمَّا مَن استعانَ بالله وتوكَّلَ عليه ، مع تركه الاجتهادَ اللازمَ له ، فهذا ليسَ بتوكُّلٍ ، بل عجزٌ ومهانةٌ .

وكذلكَ مَنْ يَبْذلُ اجتهادَهُ ، ويعتمدُ على نفسه ، ولا يتوكّلُ على ربّه ، فهو مخذولٌ .

١٢- عبدوا الإلهَ على اعتقاد حضورِهِ فتبوّءوا في منزل الإحسانِ

□ هذه المنزلةُ يقالُ لها : منزلةُ الإحسان (١) ، وهي - كما فسَّرَها النبيُّ - : « أَنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يَرَاكَ » (٢) ، فإذا تصوَّرَ الإنسانُ هذا المقامَ في جميع أحواله - لا سيما حال العبادة - : مَنَعَهُ من الالتفات بقلبه إلى غير ربّه ، بل أقبلَ بكُلِّيَّتِهِ على الله ، وتوجَّهَ بقلبه إليه ؛ مُتأدِّبًا في عبادته ، آتيًا بجميع ما يكمّلُها ، مجتنبًا كلَّ مُنْقِصٍ لها .

---

(١) قالَ ابنُ القيّم في « المدارج » (٢ / ٤٢٩) : « هي لُبُّ الإيمان ، ورُوحُهُ ، وكماله ، وهذه المنزلةُ تَجْمَعُ جميعَ المنازلِ ، فجميعُها مُنطويةٌ فيها » .

(٢) رواه البخاري (٥) ، ومسلم (٩) عن أبي هريرةَ .

ورواهُ مسلمٌ (٨) عن عُمر .

وهذه المنزلةُ من أَعظم المنازل وأَجَلّها ، ولكنَّها تحتاجُ إلى تدريجٍ للنفوس شيئًا فشيئًا .

ولا يزالُ العبدُ يُعوّدُها نفسَه حتَّى تنجذبَ إليها وتعتادَها ، فيعيشَ العبدُ قريرَ العين بربّه ، فرِحًا مسرورًا بقُربه .

١٣- نصحوا الخليقةَ في رضى محبوبهم   بالعلم والإرشاد والإحسانِ

١٤- صحبوا الخلائقَ بالجُسوم وإنَّما   أرواحُهم في منزلٍ فَوقاني

□ □ هذه حالُهم مع الخلق ، أكملُ حالٍ وأَجلُّها ؛ فأَبدَوا لهم غايةَ النُّصح ، وأَحبّوا لهم ما أَحبُّوا لأنفسهم من الخير ، وكرهوا لهم ما كرهوا لأنفسهم من الشرّ ، فَسَعَوْا في إزالة الشرّ عنهم بكلّ ممكنٍ ، واجتهدوا في إيصال النفع إليهم بكلّ مقدورٍ ؛ مِن أَمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وإطعام جائعهم ، وكسوة عاريهم ، وإغاثة ملهوفهم ، وتعليم جاهلهم ، ورَدع ظالمهم ، ونصر مظلومهم ، واحتمال أَذاهم ، وكفّهم أَذى أَنفسِهم عنهم ، ومع هذا فصُحبتُهُم لهم بالظاهر والجسم .

وأَمَّا قلوبُهم وأَرواحُهم : فإنَّها تجولُ حولَ الحبيب ،

وتطلبُ مِن قُربه أَعظمَ نصيب ؛ فتارةً تنكسرُ بينَ يديه ، وتخشعُ وتخضعُ لديه ، وطورًا تشكرهُ بحبّه ، وتُدِلُّ عليه لاستحضار بِرّهِ وقُربِهِ ، ثمَّ تميلُ إلى مراضيهِ ، فتجتهدُ في عباداته ، وتُحسنُ إلى مخلوقاته ، فهؤلاء هم النَّاسُ ، بل هم العُقلاءُ الأكياسُ .

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله .

١٥- بالله دعـواتُ الخلائق كلّهـا   خوفًا على الإيمان مِـن نقصانِ

□ هذه منزلةُ الرِّعاية [١] لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان ؛ وذلك أَنَّ العبدَ لا ينبغي له أَنْ يُعرِضَ عن تدبُّر أَحواله ، والتفكّر في نقص أَعماله ، بل يبذلُ جهدَهُ قبلَ العمل ، وفي نفس العمل - وتصحيحه وتحسينه - ، ثمَّ يصونُهُ من المفسدات ، ويُنزِّهُهُ عن المُنَغِّصَاتِ ؛ فإنَّ حفظَ العمل أَعظمُ من العمل ، فكلّما ازدادَ العبدُ رعايةً لعمله واجتهادًا فيه ازدادَ إيمانُهُ ، وكلَّما نقصَ من ذلكَ نَقَصَ من إيمانه بحسبه .

---

(١) قالَ ابنُ القيِّم في « المدارج » (٢ / ٦٠) :

« هي مُراعاةُ العلمِ وحِفظُه بالعمل ، ومُراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحِفظُه من المُفسدات ، ومُراعاة الحال بالموافقةِ ، وحِفْظُهُ بقَطعِ التفريق ، فالرعايةُ صيانةٌ وحفظٌ » .

ومن أَعظم ما ينبغي مراعاتُهُ في العمل مشهدُ الإحسان ، وهو : الحرصُ على إيقاع العبادة بحضور قلبٍ وجمعيّته على الله ، وكذلكَ مراعاةُ مِنّة الله على العبد ، وأَنّه ينبغي له أَنْ يشكرَ اللهَ على توفيقه لذلكَ العملِ أَعظمَ شكرٍ .

وكذلكَ مراعاةُ الخوف والرجاء ؛ يخافُ من ردّها بعُجبٍ أو رياءٍ أَو تكبّرٍ بها ، أَو عدم قيامٍ بحقّها ، أَو غير ذلك ، ويرجو قَبولَها برحمة ربّه ومَنّه وإحسانه إليه ، الّذي من جملته توفيقُهُ لها .

١٦- عَزَلُوا القلوبَ عن الشواغل كلّها قد فرّغوها من سوى الرحمانِ

١٧- حَرَكاتُهم وهمومُهم وعُزومُهم لله لا للخَلق والشيطانِ

□ □ أي : فرّغوا قلوبَهم عن جميع ما يَشغَلُ عن الله ، ويُبعِدُ عن رضاهُ ، وهذا حقيقةُ الزُّهد (١) .

---

(١) نَقلَ ابنُ القيّم في « المدارج » (٢ / ١٢) عن شيخِهِ شيخ الإسلام ابن تيميّة قولَه : « الزهد : تركُ ما لا ينفعُ في الآخرةِ ، والوَرَع : ترك ما يُخاف ضَرَرُهُ في الآخرة » .

ثمّ قالَ ابنُ القيّم : « وهذه العبارةُ من أَحسنِ ما قيلَ في الزُّهدِ والوَرَعِ ، وأجمعِها » .

ولا يكفي هذا التفريغُ حتّى يمتلئَ القلبُ من الأفكار النافعة والعُزوم الصادقة ، فتكونَ أفكارُ العبد في كلِّ ما يقرّبُ إلى الرحمن - من تصوُّر علمٍ ، وتدبُّر قرآنٍ ، وذكرِ الله - بحضور قلبٍ ، وتفكُّرٍ في عبادةٍ وإحسانٍ ، وخوفٍ من زلّةٍ وعصيانٍ ، أو تأمُّلٍ لصفات الرحمن ، وتنزيهِهِ عن جميع العيوب والنُّقصان ، أو تفكُّرٍ في القبر وأحواله ، أو يوم القيامة وأهواله ، أو في الجنّة ونعيمها ، والنار وجحيمها .

فأفكارُهم حائمةٌ حولَ هذه الأمور ، متنزِّهةٌ عن دنيّات الأمور ، والتفكُّر بما لا يُجدي على صاحبه إلاَّ الهمَّ والوَبالَ ، وتضييعَ الوقت ، وتشتيتَ البال ، غيرَ نافعٍ للعبد في الحال والمآل .

١٨- نِعْمَ الرفيقُ لطالب السُّبْل التي   تُفضي إلى الخيرات والإحسانِ

□ فهؤلاء هم الّذينَ يَسْعَدُ بهم رفيقُهم إذا اقتدى بسلوك سَيْرِهم فريقُهم .

وهؤلاء الذينَ أَمَرَنا اللهُ أَنْ نسألَه أَنْ يهديَنا طريقَهم إذ أَنعمَ عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقهم .

فنسألُ اللهَ أَنْ يهديَنا الصراطَ المستقيمَ ؛ صراطَ الذينَ

أنعمَ عليهم : ﴿ من النبيّينَ والصدّيقينَ والشهداء والصالحينَ وَحَسُنَ أولئكَ رفيقًا ﴾ (١) ، وأَنْ يُجَنِّبَنا طُرُقَ الغضب والضلال المُوْصِلَةَ إلى الخِزيِ والوَبال ، إِنَّهُ أكرمُ الأكرمينَ ، وأرحمُ الرَّاحمينَ .

واللهَ أسأل - وبأسمائه الحسنى وصفاته ونعمه أتوسَّل - أَنْ لا يحرمَنا خيرَ ما عندَهُ من الإحسان والغُفران ، بِشَرِّ ما عندَنا من التقصير بحقوقه والعصيان ، وأَنْ يجعلَه خالصًا لوجهه الكريم ، وسببًا للفوز عندَه في جنَّات النعيم .

والحمدُ لله ربِّ العالمين ، أوّلاً وآخرًا ، وظاهرًا وباطنًا ، حمدًا كثيرًا مُبارَكًا فيه ، كما ينبغي لكرم وجهه وعِزّ جلاله .

وصلَّى اللهُ على محمدٍ النبيِّ الأُميِّ المبعوث رحمةً للعالَمينَ ، وعلى آله وصحبه أجمعينَ ، وسلَّمَ تسليماً كثيرًا (٢) .

□□□□□

---

(١) سورة النّساء : ٦٩ .

(٢) تمَّ الفراغُ مِن ضَبْطِ نصِّ هذه المنظومةِ والتعليقِ عليها ، وكَتْب ما يُحتاجُ إليه - عليها - : صبيحةَ يومَ السبت ١٦ رمضان ١٤١٧هـ ، والله الموفِّقُ لكلِّ خيرٍ .

مسرد المراجع

١ - « الأَذكار » / النووي - السعودية .
٢ - « الأَعلام » / الزِّركلي - لبنان .
٣ - « تفسير غريب ما في الصحيحين » / الحُميدي - مصر .
٤ - « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان » / السعدي - السعوديّة .
٥ - « روضة الناظر » / القاضي - السعوديّة .
٦ - « السنن » / ابن ماجه - مصر .
٧ - « السنن » / الترمذي - مصر .
٨ - « الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة » / عبدالرزاق العبّاد - السعوديّة .
٩ - « الصحيح » / ابن حبان - لبنان .
١٠ - « الصحيح » / البخاري - مصر .
١١ - « الصحيح » / مسلم - مصر .
١٢ - « الطبقات الكُبرى » / ابن سعد - لبنان .

١٣ - « طريق الهجرتين » / ابن القيّم - مصر .

١٤ - « العبوديّة » / ابن تيميّة - السعوديّة .

١٥ - « عِدَة الصابرين » / ابن القيّم - مصر .

١٦ - « علماء نجد خلال ستّة قرون » / البسّام - السعوديّة .

١٧ - « مدارج السالكين » / ابن القيّم - مصر .

١٨ - « المستدرك » / الحاكم - الهند .

١٩ - « المسند » / أحمد - مصر .

٢٠ - « مشاهير عُلماء نجد » / القاضي - السعوديّة .

٢١ - « مصباح الزجاجة » / البوصيري - السعوديّة .

٢٢ - « المصنّف » / ابن أبي شيبةَ - الهند .

٢٣ - « معجم المؤلفين » / عمر رضا كحّالة - لبنان .

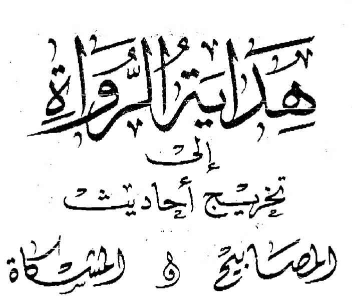
٢٤ - « مفتاح دار السعادة » / ابن عفان - السعوديّة .

٢٥ - « الوابل الصيّب » /ابن الجوزي - السعوديّة .

□ □ □ □ □

الفهرس الإجمالي

□□□□□



تصنيف
الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
المتوفى سنة (٨٥٢) رحمه الله

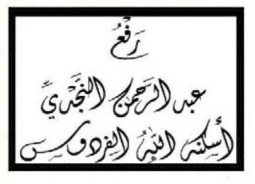
وبحاشيته
النقد الصريح لما انتقد من أحاديث المصابيح للإمام العلائي
والأجوبة على أحاديث المصابيح للحافظ ابن حجر

تخريج العلامة المحدث
محمد ناصر الدين الألباني
رحمه الله

تحقيق
علي بن حسن عبد الحميد الحلبي

عدد ٦ مجلد

دار ابن القيم　　　دار ابن عفان





في
التعليق على منظومة

السير إلى الله والدار الآخرة